

مع ديوان القاضي عياض اليعقوبي

بقلم: عبد الحكيم الزبيدي
الإمارات العربية المتحدة

اطلعت على مقال الدكتور عدنان النحوي الموسوم : مع ديوان عياض اليعقوبي وذلك في العدد (٤٦) من مجلة الأدب الإسلامي (الصفحات ٤٨ حتى ٥٤). وهو مقال تنزه فيه الدكتور النحوي في رياض ديوان القاضي أبي الفضل عياض بن موسى اليعقوبي المتوفى بمرآكش سنة ٥٤٤هـ، والديوان صادر سنة ٢٠٠١م عن مطبعة بني أزناسن بالمغرب بتحقيق الأستاذ محمد عيناك، وتقديم الدكتور حسن جلاب، ومراجعة الأستاذ علي الصقلي، كما ورد في مقال الدكتور النحوي.



من القصيدة المذكورة في الجزء الرابع من كتاب (المرشد) للدكتور عبدالله الطيب - طيب الله ثراه، في معرض حديثه عن المدائح النبوية، ورأيته يعزوها إلى ابن جابر الأندلسي المتوفى سنة ٧٨٠هـ (١). وقد ذكر

الدكتور عبدالله الطيب أن ابن جابر نسجها على روي قصيدة أبي قردودة:

يا جفنة كإزاء الحوض قد هدموا
ومنطقا مثل وشي اليمنة الحبرة
والبيت من أبيات لأبي قردودة

الطائي يرثي فيها ابن عمار قتيل
النعمان ونديمه، وكان أبو قردودة قد نهاه عن منادته،
والأبيات كما أوردها الجاحظ في (البيان والتبيين) هي:

إني نهيت ابن عمار وقلت له:
لا تأمن أحمر العينين والشعره
إن الملوك متى تنزل بساحتهم

تطر بنارك من نيرانهم شرره
يا جفنة كإزاء الحوض قد هدموا
ومنطقا مثل وشي اليمنة الحبرة

يقصد أنه كان كريما فحين قتل كفتت الجفنة التي
كان يطعم منها المحتاجين.
وللمقري صاحب (نوح الطيب) كتاب خصصه

للحديث عن القاضي عياض أسماه (أزهار الرياض في
أخبار القاضي عياض) أورد فيه نماج من شعره ليس من

وقد جاء المقال - كما هو معتاد من شاعرنا وأستاذنا الكبير النحوي - ممتعا سلسا وكانت اختياراته الشعرية من الديوان جميلة ورائعة، ولا غرو فالدكتور النحوي شاعر يحسن اختيار الشعر كما يحسن البستاني اختيار الورد والأزاهير.

ومن الاختيارات الجميلة التي اختارها الدكتور النحوي القصيدة التي قدم لها بالكلمات التالية: « ومن طريف هذه القصائد قصيدته التي تأتي أبياتها مرتبة على سور القرآن الكريم »، ومطلعها:

في كل (فاتحة) للقول معتبرة
حق الثناء على المبعوث (بالبحره)
وأورد بضعة أبيات من القصيدة المذكورة.
واتماما للفائدة أقول: إنني قد اطلعت على أبيات

حروف المعجم الثمانية والعشرين. وقد أورد الدكتور عبد الله الطيب نماذج منها، ثم قال: « وهي طويلة تدل على تمكن من اللغة واقتدار على النظم»^(٢).

والقصيدة بتمامها في (نفح الطيب)، ومنها قوله في مطلع الأبيات التي تلتزم حرف الباء:

يا رب ليل قد تعاطينا به
حديث أنس مثل أزهار الربى
في روضة تعانقت أغصانها

إذ واصلت ما بينها ريح الصبا
وقوله في مطلع الأبيات التي تلتزم حرف التاء، وفيها تخلص إلى مدح النبي ﷺ:

تالله لا أعبا بعيش قد مضى
وزمان قد تعدى وعتا
مذ علقت كفي بالهادي الذي

ساد الوري طفلا وكهلا وفتى
ثم سير على هذا المنوال مع بقية الأحرف فلعل هذا مما يقوي نسبة القصيدة الرائية إلى ابن جابر، والله تعالى أجل وأعلم ■

الهوامش:

- ١ - عبد الله الطيب: المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعاتها، الجزء الرابع (القسم الثاني)، دار جامعة الخرطوم للنشر، الخرطوم، الطبعة الثانية، ١٩٩٢، ص ٧٦.
- (٢) المرجع السابق، ص ٧٧.

بينها هذه القصيدة. إلا أن المقرئ أورد القصيدة كاملة في كتابه (نفح الطيب) ونسبها إلى ابن جابر، على أنه أشار إلى أن القصيدة تنسب أحيانا إلى القاضي عياض، ونص كلمة المقرئ هي - والحديث عن ابن جابر:

« ولو لم يكن من محاسنه إلا قصيدته التي في التورية بسور القرآن ومدح النبي ﷺ لكفى، وهي من غرر القصائد، وكثر من الناس ينسبها للقاضي الشهير عالم المغرب أبي الفضل عياض، وكنت أنا في أول الاشتغال ممن يعتقد صحة تلك النسبة، حتى وقفت على شرح البديعية الموصوفة لرفيقه أبي جعفر، فإذا هي منسوبة للناظم ابن جابر، وبعد أن أورد القصيدة بتمامها قال: « وقد عارض منحاهما جماعة فما شقوا لها غبارا».

ولعل نسبة القصيدة إلى ابن جابر الأندلسي هو الصحيح لما ذكره الدكتور عبد الله الطيب - رحمه الله - من ولع ابن جابر بالبديع والتزام ما لا يلزم مفتنا في ذلك، كما في مقصودته التي التزم فيها قبل الألف حروف المعجم، وأولها:

بادر قلبي للهوى وما ارتأى
فما رأى من حسنها ما قد رأى
فقرب الوجد لقلبي حبها

وكان قلبي قبل هذا قد نأى
ثم بعد عشرة أبيات انتقل إلى الباء بعدها الألف اللينة، ثم إلى التاء، ثم إلى الناء، وهكذا حتى استوفى

تساؤلات !!

أتساءل بين الحين والحين: هل انعدمت المشاعر الصادقة من قلوب الأحبة؟ ولماذا هذا الفتور الذي يتخلل هذه العلاقة؟ ولماذا تتذبذب أخوتنا حسب ظروف الحياة بين مد وجذر؟ ولماذا هذا الإحجام عن معرفة أخبار الأصدقاء؟ .. وتكاثر

عليّ الأسئلة ويتصدع فكري .. وأنتبه لنفسي باحثة عن العزاء فلا أجده إلا في ذكر الله وقراءة كتابه العزيز ... ويكون ختام سلوتي حين يستوقفني القلم ماصا شجونني ليزيل غبار الألم عن صدري المثقل بالوحدة.

بعض المشاعر تعجز عن تخطي حدود الصمت .. فتبقى في بؤرة خاصة من الوجد تضرب بسياط الحزن، والقلم الصديق يقف حائرا مشدوها... لا يملك الأقدام التي يهرول بها ليخطف تلك المشاعر من زمهرير الجمود.

فوزية العمري - السعودية

❖ ❖ ❖